لاجئون في وطنهم/ حكاية شيخ وقرية

ولدت وما زلت أعيش في قرية وادعة تستلقي على قمم جبال الكرمل . دالية الكرمل، القريبة من حيفا .

لم يهجر أهلها في عام النكبة، ولكنها في ذلك العام الأسود احتضنت مئات العائلات التي شرّدت من القرى الشقيقة؛ من عين غزال وعين حوض وجبع واجزم والطيرة والريحانية وأمّ الزينات .

كانت محطة لمعظم هذه العائلات إلى أن تفرّقت بين القرى الأخرى، الفريديس وأمّ الفحم وإلى حيفا وطمرة، وعادت عائلة واحدة إلى أراضيها المطلة على بيوتها وقريتها المهجرة التي استولى عليها مستوطنون فنانون قدموا من أوروبا وأميركا . عادت العائلة إلى عين حوض بعد أن لجأت إلى بيت جدي، أمضت معنا سبع سنين حيث رضعت مع أطفالها حليب الأمومة وعرفت منذ نعومة أظافري، وعلى أظافري الناعمة، أن من يقاسمني رغيف اللبنة والزعتر وحكايات جدتي هو طفل بلا بيت ولا أرض ولا وطن في الوطن الذي هو وطني ووطنه، وصار فناء الدار هو وطننا المشترك .

عائلة أخرى ظلت تسكن في قريتنا الوادعة على جبل الكرمل، عائلة الفحماوي التي شردت من أمّ الزينات والتي لا تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن قريتنا، ولو ظلت على قيد الحياة لكانت التحمت بشقيقتها لحمة سيامية، لكن كل ما بقي منها هو أشجار الزيتون وحجارة الجامع والصبار والقبور المتناثرة وكثير من الذكريات .

أمّ الزينات واحدة من عشرات القرى المهجّرة في فلسطين الغربية، ستبقى معنا هنا نموذجاً وتجسيداً لقضية ملتهبة لم يرد ذكرها في ما يسمى المساعي السلمية ومشاريع التسوية من مدريد إلى البيت الأبيض ومن أوسلو إلى شرم الشيخ، وهلمجرا . إنها حسرة المهجّرين في وطنهم مثل عائلة الفحماوي التي تحتضنها بلدنا منذ ثلاثة وخمسين عاماً بكثير من الحب لكن بأمل كبير في أن تعود إلى قريتها وأراضيها وتعمرها من جديد .

في عام النكبة شرّد أكثر من ٨٠٠ ألف فلسطيني من بين حوالي مليون عاشوا في أكثر من خمسمائة قرية ومدينة عربية فلسطينية . الباقون في وطنهم ، وكان عددهم حوالي ١٥٦ ألفاً ، كان بينهم حوالي ٤٦ ألفاً تحوّلوا إلى لاجئين في وطنهم بعد أن شرّدوا من قراهم ومدنهم التي هدمت أو استوطنت ولم يسمح لهم بالعودة حتى هذا اليوم .

مثلما احتضنت دالية الكرمل عائلات من أمّ الزينات ، احتضنت الناصرة عائلات من المجيدل ومعلول وصفورية ، واحتضنت الجديدة عائلات من البروة وميعار ، واحتضنت الفريديس عائلات من الطنطورة وعين غزال ، وكفر ياسيف احتضنت عائلات من عمقا والكويكات والغابسية ، وإلى حيفا لجأت عائلات من قيساريا والطيرة ، وإلى عكا عشرات العائلات من صفد والشاغور . ويبلغ عدد هؤلاء اللاجئين اليوم حوالي ٢٥٠ ألف لاجئ ، يسكنون على بعد ءضربة حجر» عن بيوتهم المهدمة وقراهم المدمرة ، ولا يسمح لهم بفلاحة أراضيهم ولا بترميم مساجدهم وكنائسهم التي إن ظلت قائمة فقد حوّلت إلى متاحف ومطاعم وبارات ، مثل جامع بئر السبع/ المتحف وجامع عين حوض/ البار وجامع الغابسية/ مأوى بقر المستوطنين اليهود ومتعاطي المخدرات .

قبل عشرين عاماً بدأتُ رحلة البحث عن اللجوء والموت وتقفي طريق الآلام ، بدأت بأقرب المعذّبين إلينا ، الشيخ المشقّق الوجه من أمّ الزينات ، أبي علي الفحماوي .

قال لي الشيخ المشقّق الوجه الذي نتحدّث عنه : ءنشّفوا المي ، كانت حفنة من مية بير الناطف تطوّل العمر عشر سنين ، خفا اللّه راح البير» .

هل يأتي يوم ويشرب الماء ثانية من بير الناطف؟

كم كانت هذه الأمنية فاتحة لحديث طويل معه ينتهي بأكثر من حفنة ماء ، وحفنة دموع وأكثر من بئر وبأكثر من كرم زيتون ، خصوصاً وأن حكايا هذه البئر ترتبط بالزير ابن المهلهل ، أكثر بكثير مما يرتبط به يهود مستوطنة ءعين عيمق» الذين يحرثون أرض أمّ الزينات ويفلحونها كمن يفلح أرضه ءأباً عن جد» دون خجل أو حياء . قلب الشيخ المشقّق الوجه حبّات المسبحة بأنامله التي أصابتها رجفة خفيفة اشتدت كلما احمرّ وجهه وقطب جبينه وكأنه يحاول أن يفجّر قذيفة من الغضب ، لكنه عدل وانفرجت أساريره وواصل حديثه بهدوء وروية .

في ذكرى النكبة من كل عام يقوم المهجّرون مع أبنائهم وأحفادهم بزيارة قراهم المهدومة منها والمأهولة بالغرباء ليستعيدوا الذكريات وليجدّدوا ولاءهم للأرض وإصرارهم على العودة ، وليعرفوا الأجيال القادمة على الجذور المرتبطة بالأرض ارتباطاً وثيقاً ، وقد أقاموا في عام ١٩٩٢ لجنة للدفاع عن حقوقهم بعد أن خامرهم شك بأن قضيتهم سوف ءتضيع في الدوكة» – كما نقول في لغتنا اليومية ، أي أن اللقاء على مستوى الحكومات سيكرّس للقضايا المعلّقة بين الحكومات والدول ، إسرائيل من جهة والدول العربية من جهة أخرى ، وفي الاجتماع التأسيسي الذي عقدوه في الناصرة يوم ٢٤/ ٤/ ١٩٩٢ أصدروا بياناً جاء فيه :

ءالمهجّرون كجزء من الشعب الفلسطيني وجزء من النكبة ذاتها وامتداد للشعوب العربية في هذه البقعة من الأرض ، يشعرون بإحباط عميق ومرارة شديدة لتغييب قضيتهم كلّياً في مباحثات السلام في

مدريد وعدم ذكرهم بكلمة واحدة لا من قبل ممثلي الدول العربية المشاركة ولا من قبل الوفد الفلسطيني المشارك في المفاوضات . ويصرّ المهجّرون على تطبيق الشرعية الدولية بعدالة ونزاهة لتشمل كل الشعوب التي هضمت حقوقها الوطنية والإنسانية ، بحيث لا يخدم تطبيقها فقط مصالح خاصة لبعض الدول الكبرى أو لدول مرتبطة معها . كذلك يناشد المهجّرون ممثلي الدول في الأمم المتحدة العمل على تطبيق القرارات الصادرة لصالح الشعب العربي الفلسطيني وأهمها القرارات التي تدعم حق العودة» .

ءكأننا كنا نستعد للرحيل» .

قال الشيخ المشقّق الوجه ، أبو علي الفحماوي : ءأمّ الزينات كانت كل عمرها مهدّدة بالتشريد من أيّام تركيا ومن أيّام الإنجليز وحتى تلك الأيّام السوداء ، إذ وصلت فرقة مجهّزة بكامل عتادها وحاصرت البلد على ثلاث جبهات . تركوا الجهة الشمالية للهجيج وبلّشوا سلخ رصاص على اللّي رايح وعلى اللّي جاي ، عن جنب وطرف كنت تشوف رصاصهم يزخّ علينا مثل المطر . بعد يومين دخلوا القرية وأقاموا مقر للقيادة على البيادر ، ودارت مجموعة في شوارع القرية تنادي : يا عالم يا ناس كل واحد يسلم ويطلع على البيادر» .

لم يستطع الشيخ الذي نتحدث عنه مواصلة حديثة دون أن يتوقف هنيهة ، كأنه يحاول أن يتذكّر كل كبيرة وصغيرة .

– كنا نسمع عن اليهود انهم بيقتلوا الأطفال وبيبعجوا المرأه الحبلى بالسكين . . ما بقي في راسنا عقل لما شفنا أوّل واحد منهم حامل بارودته وبيقطع شوارع بلدنا . . ما بقي في راسنا عقل ، صدّقنا وما صدّقنا . . كنا نقول منعرفهم من حيفا ، من يكنعام ، يوم يوم عايشين معهم ، ما صدّقناش ، لحتى شفنا في عينينا . .

كان مختار البلد ، يوسف العيسى ، جالساً في بيته . دخل عليه جندي وطلب منه أن يمثل أمام القائد ليسلم القرية . وفعلاً أخرجه من بيته وهو يحمل ءالشرشوح ، ملحفة بيضة على عراط طويل» ويقطع الطريق إلى البيادر ، ليقابل حضرة الضابط يهودا من يكنعام التي تبعد عن القرية أربعة كيلومترات . ولم يشفع له أنه يعرفه من قبل وأن حق الجيرة على الأقل يتطلّب من يهودا أن يحترم جاره في هذه الظروف الصعبة التي ءأصبح فيها رأس مال الزلمه فشكه مصدّيه» .

قال له : أنا بصفتي مختار البلد ، مسؤول عنها .

فسأله الضابط يهودا : وأين أهل البلد؟

فأجاب : أنا أهل البلد . شو بدّك منّي؟

فقال الضابط : بدّي إيّاهم ييجوا على البيادر ، روح صيح يطلعوا على البيادر .

فمشى المختار وإلى جانبه ثلاثة من الجنود هو يصيح :

– يا أهل البلد اطلعوا سلّموا على البيادر!

ولم يصدّق الضابط أن أكثر الأهالي الذين اكتشفوا ءباب الجهة الشمالية المفتوح» قد حملوا أمتعتهم وغادروا القرية . فسأل المختار :

– البلد كبيره . وين الباقي؟

وكشف له أن ءالناس خافت من القواس فهربت في انصاص الليالي» . وطلب من الضابط ، بحقّ الجيره ، والمعرفه القديمه ، والخبز والملح أن يُبقيه هو ومن بقي في القرية ، لكن ءالضابط ملعون ، بدّه يزيح الناس» ، ووضع أمام المختار الخيار إلى أين يتّجه . واختار يوسف العيسى . . خربة أمّ الدرج وخرج المختار .

ءبعد دقائق سمعنا طلقات رصاص ، عن مسافة كيلومتر . . ثمّ دخلت فرقة ، وين ما شافوا واحد ، قوّسوه ، قتلوا أربعة ، واحد أجوا عليه وهو نايم في الفرشه واللحاف . قوّسوه . . متزوّج وعنده أولاد . . اسمه محمّد السليم الحردان . . . » .

– اسماعيل العرف ءكان زلمه جهام ، كان يملك دارين ، واحده في أمّ الزينات وواحده خارجها ، هدموا بيته الأوّل وهدموا بيته الثاني ، ولم تتركه قوات الاحتلال بدون مأوى ، بدون بيت ثالث . فبينما كان في طريقه إلى ءالعزبه» ، أوقفته مجموعة من الجنود ، ءعلى مسافة أكمّ متر من القرية ، كان شاب مهزوم من البلد ومتخبّي في جبّ سرّيس . سمعهم بيسألوه : وين رايح ؟ قال لهم : إلي عزبه ورايح أطلّ عليها ! قوّسوه ، وقتلوه ، جثته مدفونه في السنسله» .

والحج عبد الغني كان أغنى رجل في أمّ الزينات . وكان يبلغ الثمانين من عمره ، وبينما جلس في بيته وحيداً دخلوا عليه ، فاستقبلهم كما تعوّد أن يستقبل الضيوف .

– تفضّلوا ! تفضلوا اشربوا قهوه .

تفضّلوا وشربوا القهوه . . وقوّسوه وقتلوه . وخرجوا من بيته ، ودخلوا دار الشيخ يوسف ، وكان في البيت شاب ءشوَ شاب ، زلمه قدّيش بابنا عالي ، ما كانش يفوت من هالباب ، كان يشتغل في الاي . بي . سي . فتشوه فوجدوا معه دفتر تسجيل . فأخرجوه من البيت وأخذوه إلى الزيتون . وهناك قتلوه . والقول أنهم ذبحوه بالسكين» .

قبل أن تسقط أمّ الزينات ، خرج خمسة رجال مع زوجاتهم إلى أم الفحم وعاره هرباً من الموت ، حمّلوا جملاً بالطحين وما استطاعوا أن يحمّلوا من عفش البيت وعبروا عند ءمربط خبّيزه» ، على الطريق انضمّ إليهم شابان هربا من الطيرة . لم يعرفوا أنّ هناك من ينتظرهم ، كانوا ءماشين وعندهم اللّه واحد» ، فطوّقوهم ، وصاحوا بهم :

– وقفوا سلموا !

فهجم عليهم حوالي عشرة جنود ، وأخذوا يفتّشونهم . كانت بنت المختار تلبس شالاً من الحرير ، ولما مدّ الجندي يده إلى زنّارها سقطت أوراق فلسطينية . قالوا للبنت : هاتي المصاري اللي معك .

نفضت الزنار : فسقطت ءالمصاري» أكثر من ألف ورقة فلسطينية .

سألوا البنات : لوين رايحين ؟

وفتّشوا الجمل . فوجدوا شوال طحين وءقرطومة» فشك إنجليزي وسلاح ءبيك» .

أمروا النساء أن يتابعن طريقهن إلى أمّ الفحم ، وأمروا الرجال بأن يقفوا صفّاً واحداً . كانوا سبعة شبّان : يوسف أبو مهارج ، عادل الحسين الدبور ، حسين رجا فحماوي ، حافظ عبد اللّه فحماوي ، صبري كيوان فحماوي واثنان من الطيره لم يعرف اسمهما الشيخ الذي نتحدث عنه .

كان واحد من بلدنا من دار بشير . . خرج من أمّ الزينات ومشى على طريق خبّيزه . . على البيادر شاف جثث الشباب ملقّحه على الأرض، عرفهم واحد واحد . . صبري وعادل وحافظ . . رجع إلى البلد يصيح :

– الأولاد مقتّلين في خبّيزه . . الأولاد مقتّلين في خبّيزه . .

عندما يقول المهجّرون انهم جزء من النكبة فإنهم يريدون التأكيد على أن أيّ، اعتراف بالنكبة وأيّ اعتذار إسرائيلي عنها يجب أن يشملهم، ويُريدون أن يقولوا أيضاً إن أيّ اعتراف بحقّ العودة يجب أن يشمل الاعتراف بحقهم في العودة إلى أراضيهم وقراهم الماثلة أكثر من خمسين عاماً أمام عيونهم دون أن يقدروا على إعادتها أو العودة إليها. وعندما يقولون إنهم جزء لا يتجزّأ من الشعب الفلسطيني والأمّة العربية، فإنهم يريدون أن يضعوا مأساتهم في ذمّة هذه الأمّة ليكونوا جزءاً من الحلّ مثلما هم جزء من المشكلة.

لقد قطعوا طريق الآلام التي قطعها كل لاجئ فلسطيني، وإن تعدّدت المواقع لكن الجرح واحد. وليس هناك ما يضمن خلاصهم من مأساتهم إلا إذا شملتهم التسويات العادلة لقضية كل اللاجئين الفلسطينيين، وبالرغم من خصوصية موقعهم ووضعهم السياسي والمدني، إلا أنهم لا يمكن أن يتركوا لحكومات إسرائيل كي تتابع أمرهم، فهي ترفض رفضاً قاطعاً مجرّد الاعتراف بهم كلاجئين في وطنهم، حتى أنها ترفض ليس فقط تطبيق القرارات الدولية والشرعية والتوصيات بحقوقهم على أملاكهم، بل إنها ترفض تطبيق قرارات المحكمة الإسرائيلية العليا، مثل قرار المحكمة بإعادة أهالي قرية كفر برعم، والأقسى من ذلك هو أنها وضعت قوانين وأنظمة منذ قيامها بهدف تثبيت حالة اللجوء لهذه المجموعة الفلسطينية تقوم على أساس سلب الأرض بعد هدم القرى، ومنها أنظمة الطوارئ والقوانين المتعاقبة التي تخول وزير الزراعة وضع اليد لمدة ٣٥ شهراً على الأراضي غير المفتلحة وهي ما عرفت بأنظمة الطوارئ لعام ١٩٤٨ – (استعمال الأراضي البور)، وفي عام ١٩٤٩ لجأت حكومة إسرائيل إلى أنظمة أخرى هي أنظمة الطوارئ – (مناطق الأمن) حيث صادرت مئات ألوف الدونمات من الأرض العربية التابعة للقرى المهجّرة وشملت قرى الجليل؛ الغابسية والمجيدل ومعلول والدامون وميعار وإقرث وكفر برعم. وفي هذا الوقت أعدّت القوانين التي تستبدل أنظمة الطوارئ لتكريس عمليات نهب الأرض، وكان أوّلها قانون الغائبين لعام ١٩٥٠ حيث وضعت بموجبها أراضي ٣٥٠ قرية مهجّرة تحت تصرّف القيّم على أملاك الغائبين. وقد بلغت مساحة هذه الأراضي ثلاثة ملايين ومائتين وخمسين ألف دونم، وفي عام ١٩٥٣ سنّت قانون استملاك الأراضي ثمّ توالت القوانين التي تجيز للحكومة مصادرة الأرض مثل قانون الأراضي عام ١٩٦٠. الأراضي العربية التي صودرت بموجب هذه القوانين ضمّت إلى القرى والكيبوتسات اليهودية أو حوّلت إلى مناطق عسكرية مغلقة، وفي جميع الحالات لا يُسمح لأصحابها الشرعيين فلاحتها أو البناء عليها.

زيتون أمّ الزينات ما زال منتصباً حتى اليوم ويُثمر، ولا تسمح السلطات لأهل أمّ الزينات الباقين في وطنهم أن يقطفوا ثمر زيتونهم، ولا تسمح لهم حتى بأن يضمنوا هذا الزيتون، بل إن الحكومة تضمّنه لآخرين لكي لا يأكل أصحاب الأرض من شجرهم ولكي لا يرتبطوا بالأرض بوجدانهم ومشاعرهم وانتمائهم.

اللاجئون في وطنهم كغيرهم من اللاجئين الفلسطينيين لا يحملون فقط كواشين الأرض ومفاتيح

البيوت وذكريات الماضي والرحيل، بل يحملون أيضاً أسماء قراهم؛ الصفدي والصفّوري والميعاري والمجدلاوي، كل منهم ينتسب أو يُنسب إلى القرية التي هُجّر منها، وهم يشكّلون حالة مميّزة في قرانا الفلسطينية التي لجأوا إليها، فلا يملكون سوى الأرض التي أقاموا عليها بيوتهم والتي اشتروها بأموالهم، وهي ترتفع إلى أعلى ليسكن الأولاد في الطوابق العليا، وهم يرتبطون ببعضهم البعض بصلة قربى تتجاوز الحمولة والدم، إنها قربى الغربة في الوطن، أعراسهم حتى اليوم كما كانت قبل الرحيل، ويندرجون برضاهم وبغير رضاهم تحت تعريفات اللاجئ وابن البلد، ولكنهم في كل الحالات لم يتخلّوا عن الحلم في العودة إلى قراهم ولا عن النضال في ممارسة حق لا يُثنيهم عنه أحد.

في غمرة أحداث اليوم تغيب عن الذاكرة تلك الصورة التي يتحدّث عنها الشيخ وابن الشيخ وزوجته وحتى أحفاده، نقول كانت هناك قرية اسمها كذا، وكانت هناك بلدة صغيرة واسمها كذا، نقولها عندما يقطع الباص الذي يحمل أطفالنا في رحلة ربيعية للتعرّف على معالم الوطن وآثار القرى الممسوحة.

وفي غمرة أحداث اليوم تختفي تلك القرى التي كانت مئذنتها تُعانق السُحب ورؤوس كنائسها تشمخ. وعلى تراب الزقاق العتيق يلهو أطفال صغار ولدوا في إقرث مثلاً أو في جبع وترعرعوا لاجئين في برّاكية خشب، وإن ابتسم لهم الحظ كبروا في غرفة صغيرة في وادي النسناس وفي قلوبهم شوق يشدّهم للعودة إلى الأزقّة الترابية التي كانت تلطخ ثيابهم، نتذكر أو لا نتذكّر، نحلم أو لا نحلم، سنعود أو لا نعود. فعلى لسان الشيخ، وفي كتب التاريخ، في الذاكرة الأكبر، تظلّ عشرات القرى تنتظر عودة أبنائها وستظلّ الذاكرة تحمل صورة حيّة عن عرس الستّ ورديه، وعن زفّة جمال الصالح، وعن طوشة البيادر، وعن الجنازه اللي حضروها أهل الشرق والغرب، وعن . . وعن . .

قلنا : يا شيخ ، بعد عمر طويل شو راح تترك لنا؟

ولا شي ، يمكن حكاية بلد

بتظلّ قريه عامره في القلب.

قريه مزهزهه برجالها ونسوانها واطفالها

بعمرانها واشجارها

بتضحك لقرص الشمس

وما بتنتسا

قبل عامين توفّي الشيخ أبو علي الفحماوي من أمّ الزينات، وهو الشيخ المشقّق الوجه الذي نتحدّث عنه، كان في التسعين من عمره وقد كانت وصيّته الوحيدة أن يُدفن في مقبرة أمّ الزينات.

حمل أهله النعش وتحرّك موكب الجنازة المهيبة من بيته في دالية الكرمل إلى مقبرة أمّ الزينات، هناك كان ينتظره القبر المفتوح ولكن كان في انتظارهم قوّات مدجّجة بالسّلاح سدّت الطريق بينهم وبين المقبرة وأمَرَتهم بالعودة من حيث أتوا، وحملوا النعش وعادوا يبحثون عن مقبرة تحتضن جسد شيخٍ في التسعين من عمره.

دُفِنَ في ساحة الدار، في منفاه ووطنه على حدٍّ سواء، ولّما أركن المسلّحون أنه لن يعود إلى قريته، تفرّقوا وعادوا إلى قواعدهم غانمين.

سلمان ناطور